شرح كتاب (الرد على الجهمية) لعثمان بن سعيد الدارمي -رحمه الله.

شرح فضيلة الشيخ

أ.د. أحمد بن عبدالرحمن القاضي

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس (٢٤)

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

قال أبو سعيد رحمه الله تعالى: [باب الإيمان بكلام الله تبارك وتعالى.

قال أبو سعيد: فالله المتكلم أولاً وآخراً، لم يزل له الكلام إذ لا متكلم غيره، ولا يزال له الكلام إذ لا يبقى متكلم غيره، فيقول: لمن الملك اليوم؟ أنا الملك، أين ملوك الأرض؟ فلا ينكر كلام الله عز وجل إلا من يريد إبطال ما أنزل الله عز وجل، وكيف يعجز عن الكلام من علم العباد الكلام، وأنطق الأنام؟ قال الله تعالى في كتابه: ((وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا))[النساء:١٦٤]].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن هذه مسألة كبيرة عظيمة، وقع الخلف فيها من المخالفين للكتاب، من أهل الطرق الزائغة، سواء كانوا من غير أهل الإسلام أو كانوا من أهل القبلة، ويتفرع عن هذه المسألة الكبيرة ما يتعلق بالقرآن العظيم إذ القرآن نوع من كلام الله، فيعتقد أهل السنة والجماعة أن الله سبحانه وتعالى يتكلم بكلام حقيقي من حروف وأصوات، وأن كلامه سبحانه متعلق بمشيئته، يتكلم متى شاء، كيف شاء، بما شاء، وأن كلامه قديم النوع ... فأهل السنة والجماعة يثبتون صفة الكلام لله تعالى، وأنه سبحانه وتعالى لم يزل متكلماً، ولا يزال متكلماً، بمعنى أنه سبحانه وتعالى متكلم منذ الأزل ولا يزال سبحانه وتعالى متكلماً إلى الأبد، فهو سبحانه وتعالى متصف بهذه

هذه المادة لم تراجع على الشيخ - حفظه الله -

الصفة الشريفة صفة الكلام، وكلامه سبحانه كلام حقيقي، تسمعه الآذان، من شاء الله تعالى أن يُسمعه كلامه أسمعه، وكلامه متعلق بمشيئته، أي أنه من صفاته الفعلية، فهو يتكلم متى شاء إذا شاء بما شاء، بكلام حقيقي من حروف وأصوات، ليس كلامه المعنى دون الصوت، ولا الصوت دون المعنى، بل هو مجموع الأمرين، لكن كلامه سبحانه وبحمده لا يشبه كلام المخلوقين، كما أن ذاته لا تشبه ذوات المخلوقين فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين، هذا معتقد أهل السنة والجماعة، فيرون أن الله سبحانه وتعالى قد كلم الأبوين في الجنة ((وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا))[الأعراف:٢٢]، وأن الله تعالى قد كلم موسى عليه السلام ((وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا))[النساء:١٦٤]، وأن الله تعالى كلم محمداً صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج، وأن الله تعالى يكلم عيسى يوم القيامة ويقول له: ((أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ))[المائدة:١١٦]، وهكذا، فهو سبحانه وبحمده قد تكلم بكلام حقيقي أسمعه من شاء من خلقه من الملائكة والنبيين، والأبوين آدم وحواء.

وضل في هذا الباب فرقٌ متعددة، فمن هذه الفرق التي ضلت فرق ليسوا من أهل الإسلام أصلاً، فمنهم الفلاسفة، فإن الفلاسفة قوم لا يرجعون إلى النبوات، ولا يتبعون الأنبياء، وإنما هم قوم حكَّموا العقول، ولهذا سُمُّوا فلاسفة، أخذاً من كلمة يونانية (Philosophy)، وهي مكونة من شطرين، (فيلي) بمعنى محبة، (سوفي) بمعنى حكمة، فهم يعتبرون أنفسهم حكماء، ويُعملون أفكارهم في التوصل للحقائق بمحض العقول، فنتج عن ذلك أقوال ضالة شاردة عن منهج النبوة.

ماذا قال الفلاسفة في صفة الكلام؟ زعموا أن كلام الله عز وجل هو عبارة عن أصوات أو يقولون: هو فيض من العقل الفعال على بعض النفوس الزاكية، يوجب لها تهيئات تقوى وتشتد حتى تصبح أصواتاً وصوراً مرئية، هكذا يفسرون الوحي ويفسرون الأنبياء وكلام الله، يقولون: هو فيض من العقل الفعال، لأن الفلاسفة عندهم أن العقول تسعة، وأعلاها العقل الفعال، فالعقل الفعال في زعمهم يفيض هذه المعارف، فيض من العقل الفعال على النفوس الزاكية أو على بعض النفوس الزاكية يقصدون بها نفوس الأنبياء، يوجب لها هذا الفيض تهيئات وتصورات تقوى وتشتد حتى تصبح كالأصوات، فهذا الذي يسمعونه هو ما نسميه نحن وحياً، وتظهر لهم أشكال نورانية هي التي نسميها نحن الملائكة، كل هذا فراراً مما جاءت الأنبياء بإثباته، فلهذا كانوا ملاحدة،

فهذه مقالة الفلاسفة، وهي مقالة كفرية، لأنها مؤسسة على إنكار وجود الله أو اعتقاده عقلاً فعالاً أو غير ذلك من الألفاظ التي اصطلحوا عليها.

أيضاً من المقالات الكفرية مقالة غلاة الصوفية من أصحاب وحدة الوجود، فإنهم قالوا: إن كل كلام في الكون فهو كلام الله عز وجل، فكل صوت مسموع في زعمهم فهو صوت الرب وكلام الرب، حتى قال قائلهم:

وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه

وهذا فرع من عقيدتهم الباطلة، عقيدة وحدة الوجود، وهي أن الخالق عين المخلوق، وأنه لا فرق بين الخالق والمخلوق تعالى الله عما يقولون، فجعلوا جميع الأصوات أصوات الآدميين والبهائم والطيور وغير ذلك كلها لله عز وجل، ويروى أن أحدهم كان على المنبر فسمع صوت بوم على جدار المسجد ينعق، فقال: لبيك لبيك وخر مغشياً عليه، هيأ له الشيطان هذا المعنى.

المقالة الثالثة هي مقالة الجهمية، الجهمية أنكروا كما تعلمون أسماء الله تعالى وصفاته، فلم يثبتوا لله صفة الكلام كسائر إنكارهم لجميع الصفات، ثم مقالة المعتزلة، المعتزلة يثبتون الأسماء وينكرون الصفات، ولأجل ذا قالوا: إن الكلام المضاف إلى الله مخلوق، قالوا: إن الكلام الذي أضافه الله إلى نفسه صحيح، كلام الله، لكنه من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، كما يقال ناقة الله وبيت الله وعبد الله وما أشبه، هذه مقالة المعتزلة. إذاً أثبتوا كلاماً هو حروف وأصوات فعلاً لكنها مخلوقة، ولا يمكن أن يكون شيء من صفات الله تعالى مخلوق.

ثم بعد هؤلاء هناك الصفاتية، والصفاتية أصناف، وإنما سُموا صفاتية لأن الأصل فيهم الإثبات، الأصل فيهم أنهم يثبتون صفات الله عز وجل، لكنهم ضلوا في بعض الصفات وحرفوها وأولوها عن مراد الله وحادوا عن طريقة السلف، فمن الصفاتية فرقة يقال لهم السالمية، يزعمون أن كلام الله عز وجل حروف وأصوات لكنها غير متعلقة بمشيئته، وأنه حينما يقول الله: بسم الله. فإن الباء والسين والميم لا يسبق بعضها بعضاً، هكذا يقولون.

ومن هؤلاء الصفاتية الكُلَّابية، المنسوبون إلى عبد الله بن سعيد بن كُلَّاب، فإن هؤلاء قالوا: إن كلام الله تعالى هو المعنى القديم القائم في نفسه، معنى قديم، كلام الله عندهم معاني وليس حروفاً وأصواتاً مسموعة، وإنما هو معنى قديم قائم في نفسه، طيب، فإذا قيل لهم: ما الذي سمعه الأبوان في الجنة؟ وما الذي سمعه موسى عند الشجرة؟ وما الذي سمعه جبريل؟ قالوا: هذه أصوات مخلوقة، إما في جو الجنة أو في الشجرة أو في موضع ما،

لتكون حكاية عن كلام الله، وليست هي كلامه، فالحروف والأصوات عندهم حكاية عن كلام الله وليست كلام الله، وقاربهم الأشاعرة المنسوبون إلى أبي الحسن الأشعري، فقالوا مثلما قالت الكلابية، قالوا: إن كلام الله عز وجل نثبته، ولكن كلام الله هو المعنى القديم القائم في نفسه، ولا يمكن أن يتكلم الله متى شاء كيف شاء لأنهم ينكرون الصفات الفعلية، طيب ما هذه الحروف والأصوات التي سمعها الأبوان في الجنة وسمعها موسى عند الشجرة؟ قالوا: هذه أصوات مخلوقة خلقها الله لكي تكون عبارة عن كلام الله، وليست هي كلام الله، يعني الكلابية قالوا حكاية وهؤلاء قالوا عبارة، نوع من تغيير الألفاظ، فهذه مجمل مذاهب الناس في هذه المسألة.

أما أهل السنة والجماعة فإنهم اعتقدوا أن الله سبحانه وتعالى متصف بصفة الكلام، وأنها صفة ذاتية من حيث أصل اتصاف الله تعالى بها، فعلية من حيث تجدد آحادها وأفرادها، فهو قد تكلم بالتوراة قديماً، ثم تكلم بالزبور، ثم تكلم بالإنجيل، ثم تكلم بالقرآن، كلم الأبوين في الجنة، ويكلم عيسى يوم القيامة، ويكلم عباده المؤمنين إلى غير ذلك من الأدلة التي تدل على أنه متعلق بمشيئته.

ومن أدلة تعلقه بمشيئته عند أهل السنة والجماعة قول الله عز وجل: ((وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا))[الأعراف:١٤٣] ماذا؟ ((وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ))[الأعراف:١٤٣]، إذاً جرى أمران، مجيء وتكليم، إذاً قد وقع المجيء ثم وقع التكليم، فهذا يدل على أنه متعلق بمشيئته، يفعله سبحانه وتعالى متى شاء كيف شاء بما تقتضيه حكمته، ولكن كلام الله سبحانه وتعالى ليس كأي كلام، ففضل كلام الله على خلقه كفضل الله على خلقه سبحانه وبحمده، هذا الذي فهمه أهل السنة والجماعة ودل عليه ناطق الكتاب وصحيح السنة، ولذلك قال أبو سعيد رحمه الله راداً على الجهمية، قال: فالله المتكلم أولاً وآخراً، كيف هذه الأولية وهذه الآخرية؟ قال: لم يزل له الكلام إذ لا متكلم غيره، يعني أن الله سبحانه وتعالى قد كان متكلماً حيث لا متكلم، لأنه الأول ليس قبله شيء، ولا يزال له الكلام إذ لا يبقى متكلم غيره، أي أنه بعد أن يفني الله تعالى الخلق وينادي: ((لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ))[غافر:١٦] ؟ لا يجيبه أحد، فيجيب الجبار نفسه: ((لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ))[غافر:١٦]، يقول: { أنا الملك أين ملوك الأرض؟ }، فلا يجيبه أحد، فهو الذي لا يزال متكلماً، فلا ينكر كلام الله عز وجل إلا من يريد إبطال ما أنزل الله عز وجل، صدق رحمه الله، لا ينكر كلام الله عز وجل إلا من أراد أن ينقض الكتاب ويرد دلالته، وإلا فإن الآيات صريحة في إثبات كلام الله عز وجل.

ثم تأملوا وهذه طريقة من طرائق الحِجَاج، قال رحمه الله: وكيف يعجز عن الكلام من علَّم العباد الكلام؟ صحيح، يعني هذه الطريقة في الحِجاج يمكن أن ... لها بأن واهب الكمال أولى بالكمال، إذا كان الكلام كمالاً، وإذا كان العلم كمالاً، وإذا كانت القدرة كمالاً، فمن أولى بالاتصاف بها، الواهب أو الموهوب؟ الواهب، أنت حينما ترى إنساناً يبذل بذلاً واسعاً ويتصدق وينفق ويعطي الفقراء والمساكين، فمن هو الأولى بالوصف بالغنى المعطَى أو المعطِي؟ المعطي، لأن واهب الكمال أولى بالكمال، فهذه من طريقة السلف في الحجاج.

ثم بعد ذلك أتبع هذا بذكر الأدلة النقلية النصية، فابتدأ بأصرحها وأوضحها، وهي قول الله تعالى: ((وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا))[النساء:١٦٤]، فإن هذه الآية قاطعة في الدلالة على إثبات تكليم الله، فقد قال: ((وَكَلَّمَ اللَّهُ))[النساء:١٦٤]، فدل ذلك على إثبات صفة الكلام، لأنه فعل أسنده إلى نفسه، ودل على أنه يقع منه في الماضي، لأن الفعل كلَّم فعل ماضي، أين فاعل كلم؟ لفظ الجلالة، وكلم الله، خلافاً لما طمح إليه بعض المبتدعة، فإنهم أرادوا أن يغيروا في الشكل، وهذا نوع من أنواع التحريف اللفظي، تغيير الشكل، فقالوا: وكلم الله موسى، ليجعلوا الله مكَلَّماً لا مكلِّماً، لكن أنّى لهم ذلك والقرآن العظيم قد ضُبط ورُوي بالأسانيد المتواترة التي لا يتطرق إليها شك، وقد حاول أحدهم أن يظفر بكلمة من أبي عمرو بن العلاء وهو من كبار القراء، وطلب منه أن يقرأ له الآية على هذا النحو: وكلم الله موسى تكليماً، فقال له: يا ابن اللخناء، فما تصنع بقول الله تعالى: ((وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ))[الأعراف:١٤٣] ؟ يعني هب أنك حصلت ما أردت، ما تصنع بالآية الأخرى؟ فدل ذلك على أن الله سبحانه وتعالى قد تكلم فيما مضى، كلم موسى، ثم موسى في الآية مفعول به منصوب، و(تكليماً) نعربها مفعول مطلق، مؤكِّد لعامله وهو (كلَّم)، فكان ذلك غاية في إثبات صفة الكلام لله عز وجل، لهذا قال أبو سعيد: فهذا لا يحتمل تأويلاً غير نفس الكلام. ثم قال ..

[وقال لموسى: ((إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي))[الأعراف:١٤٤] وقال الله تعالى: ((وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ))[البقرة:٧٥] وقال: ((يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ))[الفتح:١٥] وقال: ((لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ))[يونس:٦٤] وقال: ((وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته))، وقال: ((وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ

حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ))[التوبة:٦]، وقال: ((وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ))[الصافات:١٧١]، وقال: ((فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ))[البقرة:٣٧]].

الله أكبر، انظروا ما أبين القضية، انظروا كيف أضاف الله الكلام إلى نفسه في غيرما موضع وبأنواع التصرفات، ((يَامُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي))[الأعراف:١٤٤]، شوف حتى أنه ميَّز الكلام عن عموم الرسالة، ((وَبِكَلامِي))[الأعراف:١٤٤]، ((وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ))[البقرة:٧٥]، أضاف الكلام إلى نفسه، ((ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ))[البقرة:٧٥]، يريدون أن يبدلوا كلام الله، أي المنافقين، ((لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ))[يونس:٦٤]، ((وتمت كلمات ربك)) على قراءة، قال: قرأ الكوفيون ويعقوب بن إسحاق البصري بغير ألف بعد الميم ((وَتَمَّتْ كَلِمَةُ))[الأنعام:١١٥] وقرأ الباقون بإثباتها، إذاً هي قراءة ثابتة ((صِدْقًا وَعَدْلًا))[الأنعام:١١٥]، وكيف كانت قد تمت صدقاً وعدلاً؟ صدقاً في أخبارها، وعدلاً في أحكامها، ((وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ))[التوبة:٦]، ماذا نسمع هذا المستجير؟ نأتي بقارئ ونقول: اقرأ عليه القرآن، إذاً ما الذي سيسمعه هذا المستجير؟ سيسمع كلام الله، بنص كلام الله، وبكتاب الله، إذاً هذا المسموع هو كلام الله، لكن غير خافٍ أنه فرق بين التلاوة والمتلو، والقراءة والمقروء، والسماع والمسموع، والكتابة والمكتوب، والحفظ والمحفوظ، والتسجيل والمسجَّل، فالتلاوة فعل العبد والمتلو كلام الرب، السماع فعل العبد والمسموع كلام الرب، الكتابة فعل العبد والمكتوب كلام الرب، التسجيل فعل العبد والمسجل كلام الرب، فينبغي أن يميز الإنسان بين هذا وهذا، فتحريكك لشفتيك ولسانك وحنجرتك هذا لا شك أنه مخلوق، لكن هذا الناتج المسموع والمتلو يقال عنه حقيقة كلام الرب، لأن الكلام إنما يضاف إلى من قاله مبتدئاً، لا إلى من قاله مبلغاً ومؤدياً، فلو اختطب أحد على هذا المنبر وقال: أيها الناس من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت، وقال قائل: خطبة من هذه؟ لقلنا: خطبة قس بن ساعدة ... و لم نقل خطبة هذا المتكلم، ولو أنه أنشد:

قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فقال إنسان: شعر من هذا؟ لقلنا: شعر امرؤ القيس و لم نقل شعر هذا المنشد، لأن الكلام إنما يضاف إلى من قاله مبتدئاً لا إلى من قاله مؤدياً ومبلغاً.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ - حفظه الله -

فهذه آيات صريحات، في إضافة الكلام إلى الرب عز وجل، فمن أنكر ذلك فقد شقي بالقرآن، وقد قال الله تعالى: ((مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى))[طه:٢]، فيُضطر إلى أن يتكلف أشد التكلف، ويتعسف أشد التعسف ليأتي بتوجيه -وأنى له- ذلك لمراده، وقد فعلاً يعني وقعوا في هذه الأمور الصعبة وارتكبوا هذه الحماقات حتى قال الزمخشري وهو من كبار المعتزلة عند قول الله تعالى: ((وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا))[النساء:١٦٤]، قال: أي جَرَّحه بأظافر الحكمة، سبحان الله، لو حلف حالف بين الركن والمقام أنه لم يخطر هذا ببال أحد من الصحابة ولا دار بخلده ... يقول: جرحه، لأنه ذهب يبحث عن معنى في اللغة للكلام فوجد أن الكَلْم بمعنى الجرح، فقال: المقصود ((وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا))[النساء:١٦٤] أي جرَّحه بأظافر الحكمة، وهذه أشد نكراً على مذهبه، لأنها تحتاج إلى إثبات أظافر وتجريح وغير ذلك، وكل هذا من شؤم الإعراض عن ظاهر الكتاب والسنة. ثم إنه قال.

[قال عبيد بن عمير الليثي في تفسيرها: قال: قال آدم لربه وذكر خطيئته: ربي أشيء كتبته علي قبل أن تخلقني أم شيء ابتدعتُه؟].

أو شيء ابتدعتَه، هاه، ينبغي أن تكون هكذا على الخطاب، لأنه قال: ربي أشيء كتبتَه علي قبل أن تخلقني أم شيء ابتدعتَه؟ فالتاء عندكم مضمومة؟ وين أخونا التاء عندك مشكولة أو لا؟ غير مشكولة، لا، إذاً ينبغي أن تكون ابتدعتَه، نعم، إيه، مشكولة .. إيه كذلك نفس نسختنا أو؟ إيه، لا، إذاً ينبغي أن تكون تاء المخاطَب لأنه قال: كتبتَه. نعم.

[ربي أشيء كتبتَه علي قبل أن تخلقني أم شيء ابتدعتَه؟ فقال: بل شيء كتبته عليك قبل أن أخلقك، قال: فكما كتبته علي فاغفره لي، قال: فهؤلاء الكلمات التي قال الله عز وجل: ((فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ))[البقرة:٣٧]، حدثناه محمد بن كثير أنبأنا سفيان يعني الثوري عن عبد العزيز بن رُفيع قال حدثني من سمع عبيد بن عمير يقوله].

أشار المُحَشِّي إلى ضعفه، لكن ظاهر القرآن يغني، كما قال الله عز وجل: ((فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ))[البقرة:٣٧]، هذا أصرح في الدلالة. نعم.

[قال أبو سعيد: فسئل النبي عن آدم فقال: { كان نبيا مكلماً }، وقال الله: ((إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ))[النحل:٤٠]، وقال: ((سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ))[يس:٥٨] وقال تعالى لقوم موسى حين اتخذوا العجل فقال: ((أَفَلا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا))[طه:٨٩]،وقال: ((عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ))[الأعراف:١٤٨].

قال أبو سعيد: ففي كل ما ذكرنا تحقيق كلام الله وتثبيته نصاً بلا تأويل، ففيما عاب الله به العجل في عجزه عن القول والكلام بيان بيِّن أن الله عز و جل غير عاجز عنه وأنه متكلم وقائل، لأنه لم يكن يعيب العجل بشيء هو موجود به].

ما شاء الله، أبو سعيد رحمه الله في دقة الاستنباط والغور على المعاني لا مثيل له، تأملوا كيف استنبط من الآية ((عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ))[الأعراف:١٤٨]، فقال رحمه الله: إنه عاب العجل بعدم الكلام، فيُفهم من هذا أن هذا نقص وعيب، وأنه ينبغي أن يكون الإله المستحق للعبادة ماذا؟ متكلِّماً، لا يكون عاجزاً عن الكلام، فهذا معنى دقيق، وله شواهد ونظائر أخرى، فقد قال الله سبحانه وتعالى: ((وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا))[الفرقان:٣]، أي أن من كان هذا شأنه فهو لا يستحق أن يكون إلهاً معبوداً، ((وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا))[الفرقان:٣]، قال في الآية الأخرى: ((أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ))[النحل:١٧]، فأسقط الله تعالى عبادة الأصنام بسلبها هذه الأوصاف، ((لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا))[الفرقان:٣]، فدل ذلك على أن أضداد هذه الصفات ثابتة لله عز وجل، وهذا العجل لا يكلمهم، فدل ذلك على أن الرب المعبود المستحق للعبادة ينبغي أن يكون متكلِّماً يُكَلِّم سبحانه وبحمده، ونجد أن صفة الكلام لله عز وجل في القرآن موجودة بأنواع التصرفات، فقد ساق المؤلف أولاً ذكر صفة الكلام باللفظ الصريح، كلام، وكلم، كلمات، كلمة ..الخ من مادة كَلَّم، وههنا أورد بلفظ القول، والقول هو حقيقة الكلام، ((إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ))[النحل:٤٠]، ((سَلامٌ قَوْلًا))[يس:٥٨]، ((قَالَ اللَّهُ))[آل عمران:٥٥]، وهذا كثير جداً في القرآن العظيم.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ ـ حفظه الله ـ

ومن ذلك أيضاً التعبير بالمناداة وبالمناجاة، قال الله عز وجل: ((وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا))[الأعراف:٢٢]، وقال: ((وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا))[مريم:٥٢]، فالمناداة والمناجاة أيضاً دليل على إثبات الكلام، إذ المناداة هي الصوت لمن بَعُد، والمناجاة الصوت لمن قَرُب، فجميع أنواع التصرفات بذكر الكلام صريحاً، بذكر القول، بذكر المناداة، بذكر المناجاة، بوصفه بأنه حديث، وغير ذلك كلها متظافرة على إثبات حقيقة الكلام لله عز وجل.